

روائع الأدب الإسلامي المكتوب باللغة العربية في نيجيريا مذكرة إمام وخطيب في مناخ جامعي "لدى محمد أول أبوبكر "نموذجاً"

سعيد عبد العزيز الإمام

مدخل:

إن الأدب فن يعبر فيه الأديب عن أفكاره وأحاسيسه تجاه الحياة والكاننات المحيطة به، متبعا في ذلك، طريقة تعبيرية، موشاة بصور وأطياف وألوان. وهذه الطريقة التعبيرية ظاهرة عامة، ومتعارف عليها في آداب الأمم كلها، ولكن الفكرة التي تنطوي تحتها، تظل هي الفارق الذي يميز بين أدب وآخر، ويعكس للمتلقي المذهب العقدي الذي ينتمي إليه الأديب. ومن الحقيقة التي لا تشوبها شائبة من الشك، أن إنتاجات العلماء الأدبية في هذا البلد، تحمل في طياتها معان أو أفكارا إسلامية، مصوغة في قالب فني رائع ومثير، الأمر الذي يجعل القارى يعتقد بأن الأدب العربي النيجيري ينتمي في- هويته - إلى الأدب الإسلامي

والهدف من هذه المقالة هو استجلاء المعانى أو الأفكار الإسلامية في "مذكرة إمام وخطيب في مناخ جامعي" لمحمد أول أبوبكر، وبيان ما فيها من خصائص فنية، حسب المحاور التالية:

- من رسالة الإسلام ٢

المحور الأول فذلكة عن الكاتب

هو البروفيسور محمد أول أبوبكر. ولد بمدينة كنو عام ١٩٤٨م. حصل على الشهادة الثانوية من مدرسة العلوم العربية كنو، ثم الليسانس في اللغة العربية من جامعة أحمد بللو زاريا فرع كنو. نال شهادتي الماجستير ١٩٧٨م والدكتوراه ١٩٨٢م في النقد الأدبي الحديث من جامعة أدنبره، بريطانيا كان ولا يزال - يعمل محاضرا في قسم اللغة العربية، جامعة بايرو كنو. ويعرف بالمعاملة الطيبة والشجاعة الأدبية وأداء المسؤولية. وله مقالات ومؤلفات في الأدب والنقد والإسلام، منها:
- سيد قطب والنقد الأدبي
- رؤية النوبي في النقد الأدبي
- مذكرة إمام وخطيب في مناخ جامعي

المحور الثاني مفهوم الأدب الإسلامي

يعتبر مصطلح "الأدب الإسلامي" من المصطلحات الأدبية، التي تستند - في جذورها - إلى المذاهب العقدية. وقد وضع النقاد الأدباء الذين دعوا إلى إيجاده تعريفا يوضح حقيقته ومفهومه. ومن ذلك ما قاله محمد قطب:
"هو التعبير الفني الجميل عن الكون والحياة والإنسان من خلال التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان"^٣
وتقول رابطة الأدب الإسلامي العالمية:
"الأدب الإسلامي هو التعبير الفني الهادف عن الكون والحياة والإنسان وفق الكتاب والسنة"^٤

الأدب الإسلامي - حسب هذا التعريف - نابض بتجربة عا شها الأديب المسلم وعبر عنها من منظور إسلامي. أو قل بعبارة أخرى هو أدب يعبر فيه الأديب المسلم عن الأيديولوجية الإسلامية المستقرة في عقله وذهنه والأيديولوجية جزء لا يتجزأ من الأدب كما لا يمكن تجريد الأدب عنها، فهناك روابط تربط بينهما. وتتمثل هذه الروابط في اللغة والأديب فاللغة - كما هو معروف - أصوات يعبر بها الإنسان عن معانيه وأفكاره. وهي التي تعكس حقيقة هذه الأفكار والمعاني، أكانت اقتصادية، أو سياسية، إسلامية وما إلى ذلك. وبما أن الأدب يتخذ من اللغة أداة للتعبير، فإنه من اللازم أن يحمل النص الأدبي بين ثناياه- الأيديولوجية أو الأفكار

حيال تعيينه إماما للمسجد الجامع في الجامعة:

"لقد شعر الإمام الشاب بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقه.....، فبدا له شخصيته كمثدنة مسجده، يتطلع إليه الجميع، متوقفين أن يروا فيه المثل العليا، التي سيدعوا غيره إليها..... هكذا ساورته المشاعر عن توقعات المهنة، وهي توقعات ليست سهلة المنال ولا ميسورة التحقيق، ولكن لا بد من بذل الجهد نحو تحقيقها نوعا ما، والتفت إلى الدوحة العملاقة، فخيّل إليه أنه مأمور باجتثاثها وحملها على رأسها" ١١

ب. النقد الاجتماعي

من الثابت لدى النقاد أن الأديب إنسان له وعيه ومثله الأيديولوجي، الذي ينظر من خلاله إلى المجتمع، فينشئ من ذلك أدبا يشيد أو ينتقد فيه ظاهرة من الظواهر الاجتماعية التي لا تتفق مع القيم التي يؤمن بها. والأديب المسلم يعرف أنه مسؤول عن توجيه الأمة، ومن ثم لا يعيش منفصلا عن مجتمعه، بل يراقبه عن كثب، ويشخص أمراضه وينتقد الظواهر التي لا تتماشى مع المبادئ التي جاء بها الإسلام ١٢ والقارئ ل"مذكرة" يرى أن الكاتب، يوجه انتقادا هاما تجاه مما رسات آلية لبعض الأعمال العبادية، لاحظها من بعض المسلمين في مجتمعه، وتمثلت هذه الممارسات في عدم مراعاة الأعمال العبادية - عند أدائها - بالتفكير، بغية استخلاص الحكم والفوائد الروحية الكامنة فيها، وفي ما يظهر من بعض الشبان المسلمين من الحماسة الدينية، التي لا تستند إلى فهم صحيح للإسلام.

المحور الثالث المعاني الإسلامية في "مذكرة إمام وخطيب في مناخ جامعي"

مذكرة إمام وخطيب في مناخ جامعي " سيرة ذاتية، كتبها البروفيسور محمد أول أبو بكر يعبر فيها عن تجربة إسلامية عاشها في الدعوة الإسلامية، والتي باشرها في البيئة الجامعية حيث يعمل محاضرا وإماما وخطيبا في مسجدها الجامع، وتمثل الإمامة التي يقوم بها محمد أول أبو بكر في هذه البيئة، التجربة الإسلامية التي يحاول التعبير عنها في هذه السيرة الذاتية. وإلى جانب الإمامة، يتعرض الكاتب محمد أول أبو بكر لقضايا اجتماعية، مبيدا تدمره عن بعض منها، ومشيدا ببعضها الآخر، وهو في كل هذا يصدر من موقف إسلامي حاسم. وسيقوم الباحث في هذا الصدد، بعرض بعض المعاني الإسلامية الواردة في "المذكرة"، تحت هذه النقاط التالية:

أ- الإمامة

يحاول الكاتب من خلال حديثه عن الإمامة - أن يشير إلى مفهوم إسلامي تجاه الوجود الإنساني على الأرض. ومفاد ذلك هو أن الإنسان مخلوق على هذه الأرض ليتحمل أعباء الحياة ويباشر مسؤولياتها ويقدم خدمات تجاه ربه وغيره من المخلوقات، وهو لم يخلق لنفسه، وكذلك مواهبه المادية والمعنوية، ليست ملكا له وحده، بل هو مكلف بتصريفها وتوظيفها حسب ما يحبه الله ويرضاه ١٠. وعلى هذا، فالإمام مسؤول ومكلف بتقديم أعمال وواجبات تجاه الدين والأمة الإسلامية. ويلمس القارئ بوضوح هذه الفكرة، في حديث الكاتب عن المشاعر التي ساورته

التي يعتقدونها ويؤمن بها الأديب، فيسمى أدبا إسلاميا أو أدبا اشتراكيا، بناء على نوع الأيديولوجية التي تتطوي تحتها والأديب بنفسه يعد من هذه الروابط، وهو إنسان له مثل ووعيه الأيديولوجي الذي ينظر من خلاله إلى الحياة والمجتمع، فإذا أنتج هذا الأديب أدبا، فلا بد من أن يعكس عليه أيديولوجيته وعقيدته التي يؤمن بها. هذا، ويجعل الأدب الإسلامي، الكون والحياة والإنسان محور اهتمامه، إذ ينظر إلى الكون، فيبرز ما فيه من صنع الله البديع، ونظامه العظيم، كما يتناول الحياة، ليشير إلى أنها لم توجد عبثا ولم تخلق سدى، بل إنها مسؤولة، وأن الإنسان في هذه الحياة مسؤول ومكلف ومطالب بأن يعيش حياته وفق نظام الله المسيطر على الحياة والكون كله ٧

وليس الأدب الإسلامي - كما يتوهم البعض - وعظمية مباشرة، ينقل فيه الأديب معانيه نقلا آليا مباشرا، خاليا من المتعة والجمال، بل هو أدب يهتم - إلى جانب المضمون الإسلامي - بالصياغة الفنية، إذ إن الرؤية الإسلامية وحدها غير شفيعة بأدبية النص ٨

وعلى هذا، فالأديب الإسلامي يجمع - في شعره وأثره - بين الفكرة والفن، حيث نراه يتناول معانيه ومواده من خلال العاطفة والشعور، ويصّبها في قوالب فنية رائعة من ألفاظ وعبارات ذات ظلال وصور موحية والأدب الإسلامي أدب الأمة الإسلامية، ويشمل كل إنتاج أدبي مكتوب باللغة العربية وغيرها شريطة انبثاقه من الرؤية الإسلامية ٩

يبدي الكاتب تدمره حول هذه الظواهر السلبية ويبدو كل هذا جلياً في حديثه هذا: "..... وانتقل الإمام بعد ذلك، ليقرر أن صحوة المسلمين عبر العصور المختلفة، إرتبطت ارتباطاً وثيقاً بإحياء رسالة المساجد في وعي الأمة.

حقاً إن مؤشرات الصحوة الإسلامية بادية على أفق هذا البلد. ولكنها مؤشرات لا تتنظم في عقد مدروس ولا تستند إلى أسس تربوية معتمدة، ومن ثم فهي قريبة المنال طافحة على السطح، تهزها أقل الرياح عصفاً، ولعل هذا ما يفسر أخذ معظم الشعب المسلم عندنا من الدين بالقالب دون القلب والإكتفاء منه بالطقوس والشعائر دون التغلغل في الجوهر واللب"^{١٣}

ج تصوير العادات الإجتماعية الإسلامية

يهتم الأدب الإسلامي بتصوير خصائص الأمة الإسلامية ومدى تأثر الإسلام وتحكمه في عاداتها ومقوماتها الإجتماعية ليتخذ من ذلك شاهداً على شمولية الإسلام لجوانب الحياة الإنسانية.^{١٤}

وقد وردت في أماكن من "المذكرة" صور واضحة عن تأثير القيم الإسلامية في معظم الظواهر الإجتماعية لأهل نيجيريا، ومن ذلك وصفه لحفلة الوداع التي أقيمت "للإمام"، حيث توسل المجتمعون بتلاوة القرآن، راجين له الخير والسلامة في الرحلة التي يريد أن يقوم بها إلى بعض الدول الإفريقية، للتفرغ في إحدى جامعاتها. وهو في ذلك يصور مدى اهتمام

أهل هذا البلد بالدعاء والتوسل بتلاوة القرآن في كل ما يهمهم من الأمور فرحاً أوتراحاً، ويقول:

"كان الوقت عصوا سلطت فيه الشمس أشعتها المضيئة على الأرض بعد موسم الحصاد مما ولد ارتفاعاً في درجة الحرارة، وقد بدأ المد - عيون من المدينة ينضمون التي تبعد عن الحرم الجديد بنحو خمسة عشر كيلومتراً، ينضمون إلى إخوانهم الساكنين في الأحياء الجارية والقرى القريبة. وقد انهمكوا بعد الصلاة مبا- شرة في التلاوة من مصحف تحلقوا حوله. وكان المصحف موزعاً إلى أحزاب، ومن المدعوين من أخذ حزبين حسب درجات حذقهم في التلاوة، ومنهم من لا يقرأ أصلاً فاكتفى بالشهود مع إخوانه، وكما اختلفت قدرات المنهكمين في التلاوة. اختلفت طرائقهم فيها. فمن خافت بها يجيل عينيه على الحروف دونما نطق، وجاهر بها قليلاً يسمع من حوله، ومتوسط بين الخفوت والجهر، ولم يمر على بدء التلاوة إلا نحو من أرباع الساعة حتى أتوا على المصحف كله"^{١٥}

المحور الرابع طريقة الأداء

إذا أمعن القارئ النظر في النماذج المستعرضة في المحور السابق، يري أن الصورة هي الطريقة التي اتبعها الكاتب في توصيل أفكاره إلي القراء، ويتمثل ما في هذه النماذج من صورة في ثلاثة أشياء:

- ١- الألفاظ الموحية
- ب- الصور البيانية
- ج- الصورة الحقيقية

الألفاظ الموحية

هي الألفاظ التي تثير في نفس القارئ معاني كثيرة وأفكار عميقة.^{١٦} وقد وردت في تلك النماذج ألفاظ موحية. ومن ذلك قوله: "والتفت إلى الدوحة العملاقة، فخيّل إليه أنه مأمور باجتاثها وحملها على رأسه"^{١٧} فكلمتا "الدوحة العملاقة" توحيان - بظلالهما- بأن الإمامة المعروضة عليه، مسؤولية كبيرة، تتطلب منه بذل جهود مضنية في أدائها أو القيام بها، وتوحي كلمة "اجتاث" بما تتطلبه الإمامة من خدمات، لا بد للإمام من تقديمها تجاه الأمة. وعلى نفس الوتيرة، تعيد كلمة "حمل" إلى الذهن، وتثير في النفس ذكر "الأمانة" المعروضة على الإنسان في القرآن، ليفهم القارئ بأن الإمامة جزء من تلك الأمانة التي هي فحوى استخلاف الإنسان على الأرض، كما أشار إلى ذلك القرآن:

﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولاً﴾^{١٨} الأحزاب ٧٢

الصور البيانية

يقصد بالصورة البيانية، تلك الصورة التي يستخدم فيها الأديب الوسائل البيانية من تشبيه واستعارة وكناية، لنقل أفكاره وتصوير أحاسيسه النفسية.^{١٨} وقد وظف البروفيسور محمد أول أبويكر هذا النوع من الصور في تلك النماذج. ويشهد على ذلك قوله:

"..... فبدا له شخصه كمثدنة مسجده يتطلع إليه الجميع، متوقعين أن يروا فيه المثل العليا

الأفكار في "المسؤولية" و"مرافقة الممارسات العبادية بالتفكير، والحاجة إلى إقامة الصحوة الإسلامية على فهم صحيح للإسلام" و"الإهتمام بالدعاء والتوسل إلى الله تعالى بقراءة القرآن في كل المهتمات والملمات". استوحى الباحث هذه المعاني، من خلال المشاعر التي ساورت الكاتب، محمد أول أوبكر، حيال "الإمامة" المعروضة عليه، ومن النقد الذي وجهه تجاه بعض الممارسات العبادية التي يقوم بها بعض المسلمين في مجتمعه، ومن وصفه لبعض العادات الإجتماعية الإسلامية في هذا البلد، ثم أدلى الباحث ببيان وجيز عن الطريقة التعبيرية التي اتبعها الكاتب، وقلنا إن الكاتب اتبع الأسلوب التصويري في توصيل تلك المعاني إلى القارئ، ومن ثم يتبين للقارئ أن البروفيسور محمد أول أوبكر، أديب إسلامي، وأنه استطاع أن يوفق في هذه "المذكرة" بين الرؤية الإسلامية والتجويد الفني

عينيه على الحروف دونما نطق، وجاها بها قليلا يسمع من حوله ومتوسط بين الخفوت والجهر" ٢٢
إن ألفاظ الكاتب في هذا الكلام ألفاظ حقيقية، ولكنها تعطي صورة دقيقة وشفافة عن حالة الطقس في الوقت الذي عقد فيه مجلس الدعاء، وعن طبقات الحضور المنهمكين على تلاوة القرآن. فني قوله:

"كان الوقت عصرا سلطت فيه الشمس أشعتها المضيئة على الأرض بعد موسم الحصاد مماوِّد ارتقاعا فيدرجة الحرارة"، تصوير دقيق لحالة الجو وما يصاحبه من قيظ وهجير، ينتمي معه وجود الهواء. وكذلك يلاحظ تصوير دقيق في قوله عن اختلاف قدرات المنهمكين في القراءة. ومما ساعد على هذه الدقة في التصوير، استعماله الأفعال المضارعة التي وضعها اللغة للدلالة على الأحوال المنظورة ٢٣، مثل: "يجيل" و"يسمع"، الأمر الذي يجعل القارئ يحس، كأنه يرى القراء، وما يظهر لديهم من كميّات القراءة، رأي العين، ويشعر كأنه يشهد ما يجري في المجلس ماثلا أمامه، يقول:

"وكما اختلف قدرات المنهمكين في التلاوة، اختلفت طرائقهم فيها، فمن خافت بها يجيل عينيه على الحروف دونما نطق، وجاها بها قليلا يسمع من حوله ومتوسط بين الخفوت والجهر"

الخاتمة

تعرضت هذه المقالة فيما سبق للحديث عن بعض المعاني أو الأفكار الإسلامية التي وردت في "مذكرة إمام وخطيب في مناخ جامعي" وتتمثل تلك

التي سيدعوا غيره إليها" ١٩ يشبه الكاتب "الإمام" هنا بالمتدنة التي هي في مكان عال والتي هي علامة يهتدي بها الناس إلى المسجد، ليقول بأن من مسؤوليات "الإمام" أن يكون أسوة حسنة لجماعته في الأقوال والأفعال. وكذلك يصور - على سبيل الإستعارة التصريحية - عدم استناد الصحوة الإسلامية لدى الشباب إلى فهم صحيح وفكر عميق، في صورة بناء غير مؤسس على أساس متين، بحيث إذا تعرض لعا صفة قليلة، فسينهار ويهوي، كما يلمس القارئ ذلك بوضوح في هذا الكلام حقا إن مؤشرات الصحوة الإسلامية بادية على أفق هذا البلد. ولكنها مؤشرات لا تنتظم في عقد مدروس ولا تستند إلى أسس تربوية معتمدة، ومن ثم فهي قريبة المنال طافحة على السطح، تهزها أقل الرياح عصفًا. ٢٠

الصورة الحقيقية

هي كل صورة استطاع الأديب من خلالها تصوير ما يريد التعبير عنه بألفاظ حقيقية تشكل مجموعها صورة دقيقة للتصوير، ثم عن خيال خصب ٢١ وإذا نظر القارئ في هذا الكلام التالي، يجد أن البروفيسور استخدم هذه الصورة الحقيقية "كان الوقت عصوا سلطت فيه الشمس أشعتها المضيئة على الأرض بعد موسم الحصاد مماوِّد ارتقاعا في درجة الحرارة..... وقد انهمكوا بعد الصلاة مبا-شرة في التلاوة من مصحف تحلقوا حوله وكان المصحف موزعا إلى أحزاب وكما اختلفت قدرات المنهمكين في التلاوة، اختلفت طرائقهم فيها، فمن خافت بها يجيل

الهوامش:

- ١ - أنظر: المقابلة، كمال أحمد، آراء رابطة الأدب الإسلامي العالمية في الأدب والنقد، ط١، (عمان-الأردن ١٤٢٢-٢٠٠٢) ص٧٦
- ٢ - هذه النبذة التاريخية، مقتبسة ممّا كتبه محمد أول أبوبكر عن نفسه في الغلاف الأخير لكتابه الموسوم "رؤية النويهي في النقد الأدبي"
- ٣ - قطب، محمد، منهج الفن الإسلامي، ط٤ (بيروت: دار الشروق ١٤٠٠-١٩٨٠)، ص٦
- ٤ - النظام الأساسي لرابطة الأدب الإسلامي العالمية، (الرياض: شركة العبيكان للطباعة والنشر ١٤١٢-١٩٩١)، ص٢٣
- ٥ شديد، طارق عبد الفتاح، "أزمة الأدب العربي المعاصر: رؤية من خلال علاقة الأدب بالمعتقد" الإيديولوجيا، مجلة رابطة الأدب الإسلامي العالمية، العدد (٥)، ١٤١٩، ص٥٩
- ٦ - شديد، طارق عبد الفتاح، أزمة الأدب العربي المعاصر: رؤية من خلال علاقة الأدب بالمعتقد "الإيديولوجيا"، مقال سابق، ص٥٩
- ٧ - أنظر، الكيلاني، نجيب، آفاق الأدب الإسلامي، ط١ (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٧-١٩٦٥)، ص٤٤
- ٨ - أنظر، المقابلة، كمال أحمد، المرجع السابق، ص٨١
- ٩ - أنظر، ثاني، عبد الرحمن شثّ، مدخل إلى أدب أفريقيا الإسلامي، مجلة الأدب الإسلامي في نيجيريا، ماضيه وحاضره، العدد (١)، ص١٥٣
- ١٠ - أنظر، قطب، محمد، المرجع السابق، ص٦٠
- ١١ - أبوبكر، محمد أول، مذكرة إمام وخطيب في مناخ جامعي، ط١ (بدون دار الطبع، ١٤١٥-١٩٩٤)، ص١٧
- ١٢ - أنظر، الكيلاني، نجيب، المرجع السابق، ص٩٩
- ١٣ - أبوبكر، محمد أول، المرجع السابق، ص١٢
- ١٤ - أنظر، الكيلاني، نجيب، المرجع نفسه، ص٣٥
- ١٥ - أبوبكر، محمد أول، المرجع نفسه، ص٣
- ١٦ - أنظر: بدوي، أحمد أحمد، أسس النقد الأدبي عند العرب، ط٢، (مكتبة نهضة مصر بالفجالة، ١٩٦٤)، ص٥٧
- ١٧ - أبوبكر، محمد أول، مذكرة إمام وخطيب في مناخ جامعي، ط١ (بدون دار الطبع، ١٤١٥-١٩٩٤)، ص١٧
- ١٨ - أنظر: الجهني، زيد بن محمد بن غانم، الصورة الشعرية في الفضليات، ط١ (الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، عمادة البحث العلمي، ١٤٢٠)، ج١، ص٥١
- ١٩ - أبوبكر، محمد أول، المرجع السابق، ص١٨
- ٢٠ - أبوبكر، محمد أول، المرجع نفسه، ص١٢
- ٢١ - أنظر: الجهني، زيد بن محمد بن غانم، المرجع السابق، ص٥٤
- ٢٢ - أبوبكر، محمد أول، مذكرة إمام وخطيب في مناخ جامعي، ط١ (بدون دار الطبع، ١٤١٥-١٩٩٤)، ص٣
- ٢٣ - صيف، شوقي الفن ومذاهبه في الشعر، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الثالثة عشرة، ص٢٣